قضية الجزائر ..

التعذيب .. والشرف

بقلم الدكتور سهيل ادريس

تمزقت معك ، يا أخي علي بومنجل ، حين القيت بنفسك منتحرا ، لتتخلص من التعذيب الذي كنت تلاقيه من البوليس الفرنسي في الجزائر ... وشعرت بالراحة ، حين رأيتني ملقى الى جانبك ، والدم ينزف من رأسي ، فيسيل منه خيط الى زاوية فمي ، اتمصصه ، فأغمض جفنيّ على مذاق الفداء والشرف ...

وادركت حالتك النفسية ، يا أخي فرانسوا مورياك ، حين أعلنت انك ستنقطع عن كتابة الرواية ، لان « فظاعة عالم الواقع تطردك من ميدان التأليف الخيالي » وحين أضفت بأنك لا تنتظر بعد غير الموت ، لان فرنسا التي تراقبها منذ سنوات ، ولا سيما في الجزائر ، قد ماتت ... وانها الآن تموت باستمرار في كل لون من الوان التعذيب التي تخضع لها الجزائريين المسلمين ، لانها تفقد في كل لحظة شرفها ...

*

هذان الجوان ، جو التعذيب الذي انكشف اخيرا عن افظع الوان الوحشية في الجزائر ، وجو الثورة التي قامت في اوساط المفكرين الاحرار بفرنسا دفاعا عن الشرف والانسانية ــ هذان الجوان هما اللذان عشتهما هذه الايام الاخيرة ، عبر الكتاب والصحف الفرنسية ، دامي القلب والضمير .

لقد تابعت قصة جان سرفان شرايبر J. S. Shreiber التي عنوانها « ملازم في الجزائر » والتي يروي فيها ما شاهده بعينيه من ضروب الوحشية في معاملة الثوار واهل الثوار بل وجميع مسلمي الجزائر ، فلم يستطع حين عاد الى وطنه ان يخرس لسانه ويخنق ضميره فكتب الحقيقة بحذافيرها ، واثارت مقالاته انقلابا في مختلف الاوساط الفرنسية التي أخذت تدعو الى تأليف لجنة للتحقيق في هذه الجرائم البشعة التي يقترفها زبانية روبير لاكوست .. وتابعت ردود الفعل المختلفة ، من استقالة عميد جامعة الجزائر ، واستاذ القانون فيها ، وعريضة المفكرين الفرنسيين باستنكار هذه اساليب ، وما الى ذلك مما شعر به الشرفاء من الفرنسيين احتجاجا ودفاعا عن الكرامة الانسانية المنتهكة .

وكان آخر ما قرأت هذا الكتاب الذي الفه اديب معروف هو بيار هنري سميون P. H. Simon بعنوان « ضد التعذيب » واورد فيه وثائق وشهادات قدم لها بقوله : « انها باقة ، لا من الزهور والادب والانسانية ، بل من الاشواك الدامية المخجلة . ولئن بقي ثمة فرنسيون يشعرون بعدُ بالشرف ككورناي وبيغي ، وبطهارة الجندي كفوفنارغ وبعظمة فرنسا كميشيله وبالرحمة كهوغو ، فانهم لا بد ان يحمروا خجلا اذ يقرأون هذه الشهادات التي انقلها وانا غاضب حتى الالم »

ويروى المؤلف بعد ذلك عشرات الحوادث ، من غير ذكر الاسماء الا بالاحرف الاولى ، ليجنب اصحابها شر الانتقام ... وهأنذا اورد بعض هذه الاحداث :

« انا الموقع ا.ب.ا. المستشار البلدي لمدينة س ... اقسم بشرفي اني اروي الحقيقة هنا حين اوقفني رجال شرطة الحكومة ، وساقوني الى مفوضية الشرطة ثم الى المختبر . وبدأ المفوضون الثلاثة فلان وفلان وفلان مع عشرة من الرجال تقريبا ، يضربونني بقبضاتهم وارجلهم ... ثم امروني ان أخلع ثيابي ثم قيدوا يدي وطلبوا مني ان أقعي ، ووضعوا قضيبا بين فخذي ، ثم عصبوا عيني ووضعوني فوق عجلة من الكاوتشوك وأخضعوني « لتعذيب الانبوب » وهم يركلونني حتى أغمي علي ، وذلك على ثلاث مرات حتى انتهكت قواي جميعا ، ثم نقلوني الى زنزانة ظللت فيها خمسة ايام قبل ان امثل امام القاضي »

وقال م.س.ز. الملاّك في مدينة س...

« حين دخلت مركز الشركة رأيت المدعو « ك.. » ملقى على الارض فاقد الرشد وقال لي المفوض : « مساء امس ، القي من شرفة منزلك شعلة خضراء . ونريد ان نعرف الحقيقة ، اجلس على الارض » . وسرعان ما اتى دركي فشد يدي وربطهما الى فخذي ، ووضعوا طرف شريط كهربائي خلف أذني ، والطرف الآخر على اصبعي ثم اداروا المجرى الكهربائي واخذوا يطرحون علي الاسئلة .

« وقد فقدت وعيي سريعا .. وفي اليوم التالي اخذوني الى السجن واعادوا التجربة ... وبقيت ثلاثة ايام دون ان يطعموني شيئا . » وكان مرفقا بهذه الشهادة تصريح من الطبيب « ج.. »الذي عالج المذكور واثبت انه مصاب بانهيار عصبي ، ولم يكن يعرف شيئا مما اتهم به .

وارسل ضابط من فرقة × رسالة الى صديق له بتاريخ ٦ حزيران ١٩٥٦ قال فيها : « اشعر يا جان باشمئزاز لم اشعر به من قبل قط . ان الالمان باساليبهم كانوا اطفالا صغارا بالنسبة الينا . لقد رأيت اعمال مكتب المظليين الثاني . التعذيب طوال النهار لاستنطاق الموقوفين . الانبوب الضاغط في الفم حتى يخرج الماء من كل مكان . الايدي معلقة خلف الظهر ، ثم يعلق الموقوف من يديه حتى تتخلل المفاصل ، والضرب مستمر اثناء ذلك . بل اكثر من هذا : المجرى الكهربائي متصل بالعضو التناسلي ، والطرف الآخر بالرأس ... واكثر .. بعد ان تنفد قواهم ، توضع سكين بين الكتفين.. اننا جميعا في فرقة × نشعر بالغثيان .

وجاء في رسالة آخر :

« روى لي م. انه شاهد في قرية « ه.. » منذ ايام تعذيب شيخ مسن بالكهرباء : طرف السلك في مؤخرته والطرف الآخر في اذنه ... وهذا كله بحضور زوجته ! »

وصرح احد اعيان مدينة القسنطينية :

« اوقفني الجنود وبدأوا باستجوابي الذي استمر سبعا وخمسين ساعة تكبدت خلالها العذابات التالية : ـ الكهرباء في الاصابع والاذنين ، الحمام المحرق ، الضرب بالسياط على الارجل ، الكهرباء في الاعضاء التناسلية ».

ومن رسالة اخرى بتاريخ آذار ١٩٥٦ :

« بعد ظهر هذا اليوم ، السبت ، جرح الارهابيون احد الجنود جراحا خطرة . فكان رد الفعل ان قذف الجنود الفرنسيون بالمدفع جميع المسلمين المقيمين على مقربة من مكان الحادث ، واختاروا ستة منهم واطلقوا عليهم الرصاص . وفي اليوم التالي اطلق سراح ستة مسلمين في المنطقة نفسها لعدم ثبوت اية تهمة عليهم ، ولكن جثثهم وجدت بعد ساعات في الضاحية ، وصدر بلاغ بان اشتباكا حدث ، قتل فيه ستة من العصاة ... »

وجاء في رسالة اخرى بتاريخ ٣٠ نيسان ١٩٥٦ :

« منذ اثني عشر يوما ، جرح احد حراسنا في مركز للبوليس ، فسارع الجيش الى اخلاء المنازل وقبض على عشرة اشخاص كرهائن ثم قتلهم . وكانوا عمالا في احد المناجم ، وقد اشمأز الاوروبيون من هذا العمل وكانوا يتحدثون عن المسألة والدموع في عيونهم : لقد كانوا يعرفون هؤلاء العمال ويعملون معهم كل يوم . »

✶

روى الكاتب الفانسي المعزوف ارمان سالاكرو ان قضية الشر حفرت فكره منذ حداثته ، عندما قرأ « لتاسيت » قصة تلك الفتاة التي امر الملك « تيبير » بانتهاك شرفها في السجن ثم بخنقها حية . ولقد ظل الكاتب يسمع في ضميره صراخ هذه الفتاة الذي يعلن عن جزعها ورعبها وبراءتها ، ورأى في هذا الصراخ رمزا للاحتجاج الذي يرتعش عبر التاريخ كله والذي حملت معظم آثاره علامته وطابعه ... اجل ، ينبغي ان تحسن الاستماع الى هذا الصراخ الذي يجأر به الابرياء يوضعون في السجون والزنزانات ويتكبدون اشد انواع التعذيب الوحشي ...

لقد سمع بيار هنري سيمون هذه الصرخة يصعّدها فتى عربي في الثالثة عشرة من عمره ...

« ... فاجأته دورية يلوذ بالفرار فحكمت بانه انطلق يشي للثوار بمقدمها . وكان معه رعاة آخرون ، فاطلق الجنود عليهم النار فأخطأوهم ولكنهم تمكنوا من القبض عليه وعلى رفيق له عجوز ... »

ويتابع الجندي في مذكراته : « وقد سمعت مساء الامس صراخا فحسبت انه عواء بنات آوى ، ولكن ذلك قد استمر ، فاضطررت الى الخروج ، وانا في ثياب النوم ، وارهفت سمعي ، فاذا هي اصوات انين تتصاعد من خيمة الملازمين المجاورة . وقلت في نفسي : ان من المستحيل ان يجربوا الكهرباء بالفلام ، فلعلهم انما يريدون استنطاق الشيخ العجوز ، وعدت الى خيمتي مشمئزا . لقد كانوا يعذبون الصبي في الواقع .. وكان هذا صراخه » .

يقول مؤلف كتاب « ضد التعذيب » :

« ان انين الخوف والالم الذي كان ينبعث من هذا الصبي العربي ، اذ كان ضابطان فرنسيان يعذبانه في الليل ليقسراه على الوشاية ببني جنسه ... ان هذا الانين منذ سمعته في هذه القصة الحقيقية ، احمله في قلبي كأنه حرق ... لقد انطلقت هذه الصرخة في ظلام العجز واليأس ، وما كانت لتضيع لو عرف احد كيف ينشرها ويذيعها في صدى من الاستنكار والحب ... ففي مثل هذا العصر المحمل بالفضائح والحماقات والاكاذيب ، غالبا ما يتفق للكاتب الحر ان يفقد الامل : ما الفائدة من نصب خطوط الكلمات الهزيلة وركم الكتب التي تخنقها اللامبالاة ولا بد من ان يكفنها النسيان ، ازاء الوحشية العمياء ؟ ومع ذلك ، فان عمل الكاتب لن يكون بلا فائدة ، ولن يكون خاليا من النبل اذا استطاع ان يلتقط صرخة هذا الراعي الصغير الذي أهينت الانسانية في جلده ، فيساعد على تصعيد هذه الصرخة الى النجوم ، وعلى اجتياز البحر ، وعلى ايقاظ الانسان ، وايقاظ فرنسا . »

✶

اما انا ، فقد وقفت امام عبارة صغيرة قالها ثائر مكافح من الجزائر ، لا امام صرخة اطلقها طفل بريء .

جاء في رسالة احد الجنود :

« بعد ظهر ذلك اليوم من كانون الاول .. دعا الدركيون بعض العسكريين الى رؤية المشهد . وكانوا يعذبون عربيين اوقفا عشية الامس . وكان التعذيب الاول هو ان يعلق الرجلان عاريين تماما من الاقدام ، والايدي مشدودة الى خلف الظهر ، وان يغطس رأساهما فترة طويلة في دلو من الماء لحملهما على الكلام . اما التعذيب الثاني فكان ان يعلقا مربوطي الاقدام بالايدي خلف الظهر ، والرأس هذه المرة الى فوق . وكان موضوعا تحتهما مرفع ، وكانت اللكمات تهبط عليهما فيتأرجحان بحيث ان اسفلهما كان يحتك بحديد المرفع الحاد كالشفرة ...

« وكانت العبارة الوحيدة التي قالها احدهما وهو يلتفت الى العسكريين الحاضرين : انني اشعر بالخجل من ان اظهر عاريا امامكم » .

أجل ، ان هؤلاء المكافحين الابطال ما يزالون يحتفظون بحس الطهارة الصافي الذي يحسبون انه يخدش اذا ظهرت عوراتهم امام الاعين .. انهم يتحملون اشد الوان العذاب ، ويكبحون لسانهم ان ينطلق بصرخة الالم حتى تدمى اطرافهم واعضاؤهم الحساسة ، ولكنهم لا يحتملون ان يظهروا عراة امام معذبيهم !

ايها المكافحون المعذبون في الجزائر ... لن تكونوا ابدا عراة ما دمتم ترتدون ثوب الشرف !

سهيل ادريس

ظهر في الاسواق

الهلال

مجموعة شعرية تنضح بالرقة والعذوبة والوجد

لشاعر الهند العظيم

رانبوراناث طاغور

عربهـا باسلوب مشرق :

الدكتور بديع صفي

طبعة انيقة — الثمن ليرة لبنانية